

الدين والسياسة والحضارة عند مالك بن نبي في منظور المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله

**Religion, Politics and Civilization according to Malek Ben nabi
from the Perspective of Abou El Kacem Saâdallah**

حفيظة بن دحمان^{*1}

تاريخ النشر: 2024/12/30

تاريخ القبول: 2024/12/19

تاريخ الإرسال: 2024/11/08

ملخص:

تعددت الدراسات التي تناولت مالك بن نبي وأعماله، وكان التركيز خصوصا على مؤلفاته ونظرياته المعروفة حول الحضارة وفكرة القابلية للاستعمار وفلسفة التغيير عموما. وحيث تزيد الحاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى الاطلاع على فكر مالك بن نبي واستيعابه، من خلال بحوث تبسط أفكاره وتحللها وتربطها بغيرها، وتسلب الضوء على بيئة الرجل ومساره والظروف التي أنتج فيها أفكاره، بعيدا عن تقديسه والانبهار به، يأتي هذا المقال ليحاول الكشف عن صورة مالك بن نبي في عيون مؤرخ جزائري طالما اهتم بالتراث الثقافي للجزائر وانبرى للدفاع عن هويتها وحضارتها، وهو "أبو القاسم سعد الله" الذي عاصر ابن نبي في مصر وفي الجزائر، وقرأ مؤلفاته من زاوية ناقدة، وكتب عن فلسفته وأفكاره ونظرياته برؤية نحسبها محايدة وموضوعية.

الكلمات المفتاحية: استعمار؛ هوية؛ التنظير للثورة؛ الحضارة الغربية؛ التغيير

Abstract:

Several studies had been dedicated for Malek Ben nabi and his works which mainly focused on his writings, his famous theories about civilization, the idea of the capability to be colonised and the philosophy of change in general. Certainly, there is an increasing necessity nowadays more than ever to check out his ideas and thoughts then absorb them throughout researches that simplify his ideas, analyse it and link it with other ideas. while putting in the spotlight his environment, his path as a thinker and the circumstances in which he produced these ideas without idolising him or being impressed by him. This article aim to reveal the image of Malek Ben nabi in the eyes of an Algerian historian who had always been interested in the Algerian cultural heritage and in defending this country's identity and civilization, which is Abou El Kacem Saadallah, was a contemporary of Malek Bennabi in Egypt and Algeria as well. A man who had read Malek Bennabi's writings from a critical viewpoint and had written about his philosophy, ideologies and theories in a vision we consider neutral and objective.

Keywords : Colonisation ; Identity ; The theorisation for revolution ; The western civilization ; Change

*المؤلف المراسل

¹Hafida BENDAHMANE, Faculty SHS University of Constantine 2, Laboratory for Studies and Research in the Civilization of Islamic Maghreb, hafida.bendahmane@univ-constantine2.dz

مقدمة

من الكتاب القلائل، الذين عاصروا الفيلسوف والمفكر الجزائري "مالك بن نبي"، وقابلوه وسمعوا منه، وكتبوا عنه باتزان وحياد وموضوعية دون تلمص لأدوار المحاسب له أو المدافع عنه، هو المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله (1930-2013) صاحب موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي (12 جزءًا). وهي الموسوعة التي أراد بها صاحبها أن تكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية عبر العصور، تفنيدا لمزاعم المستعمرين الفرنسيين الذين بثوا طيلة احتلالهم للجزائر بأنه لم يكن لأهلها ماضٍ سياسي ولا ثقافي.

وبغض النظر إن كانت الجزائر "مستقلة سياسيا أو مستعمرة، فإن وجودها الثقافي ثابت لا يتزعزع"، وهي إحدى النقاط التي ضمّنها المؤلف موسوعته كرسالة بليغة لجيل الاستقلال (تاريخ الجزائر الثقافي ج.1، الصفحات 24-25). وقد ركز سعد الله على التعريف بالثقافة الجزائرية لأنها جزء من ذاتنا وحقيقتنا التي نعتز بالانتساب إليها، لكن دون أن ينظر إلى هذا التراث بنظرة تقديس. ولا شك أن التعريف برموز الثقافة والفكر وتقديم أفكارهم وجهودهم للجيل الجديد، مما يساهم في ربط حلقة الوصل بين فروع هذه الأمة وجدورها، وبالتالي بقاء جذوة الذات الحية التي تتيح استمرارية الجيل ومقاومته ورهانه على الحياة.

وقد أفرد سعد الله قسما مميزا لمالك بن نبي في الجزء السابع من موسوعته السالفة الذكر في معرض حديثه عن العلوم الاجتماعية وروادها من الجزائريين، كما يُعثر على اسم ابن نبي وأسماء كتبه على مدار أجزاء شتى من نفس الموسوعة، وفي مؤلفات أخرى للمؤرخ أبو القاسم سعد الله. ولا شك أن المؤرخ هنا يقدم ابن نبي للجيل الجديد الذي لا يعرف سيرة الرجل ومساره ومختلف الظروف التي مر بها، ويسلط الضوء على الخلفية التاريخية والظروف السياسية التي أنتج فيها ابن نبي كل كتاب من كتبه، لأن الاطلاع على نظريات الفيلسوف مباشرة، دون التعرف على مختلف السياقات التي نشأت ضمنها أفكار المؤلف، مما قد يدفع القراء والمريدين للانبهار بالشخصية دون التدقيق فيما قال به أو الوعي بما فُكر فيه ودعا إليه، وهو ما من شأنه أن يحول بين هذا الجيل وبين الفهم العميق لأفكار مالك بن نبي وتطبيق أطروحاته على أرض الواقع.

وكان سعد الله قد التقى بابن نبي في القاهرة حين كان الأول طالب علم والثاني لاجئ حرب، وحضر الطالب لبعض محاضرات الأستاذ وسمع منه أفكاره وتعرف على بعض نظرياته مباشرة، وكان قاب قوسين أو أدنى من مرديه والمتأثرين به. لكن عندما يتحدث المؤرخ عن الفيلسوف يكاد يخفي حالة الانبهار به أو التقديس لأفكاره، ذلك أن المؤرخ يكتب بوعي عميق عن الفكرة التي يؤصل لها فييدي تحكما ملحوظا في انفعالاته وتحررا إلى حد ما من نوازه الشخصية. فسعد الله المؤرخ يركز على الخلفية التاريخية والظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي نشأ فيها ابن نبي وأنتج فيها أفكاره وطور ضمنها نظرياته، وهذا بلا شك مما قد يساعد في الإلمام بفلسفة الرجل والإحاطة بفكره المتقدم.

وعليه، يريد هذا المقال أن يُعنى بنظرة أحد علماء الجزائر ومثقفها تجاه المشروع الفكري لمالك بن نبي القائم على جوانب مبتكرة وحيوية في الفكر الإسلامي، والتي شملت في عمومها الدين والسياسة والحضارة بمفهومها الواسع.

ويسعى البحث لمناقشة إشكالية تتعلق برؤية المؤرخ أبو القاسم سعد الله لشخصية مالك بن نبي، وطريقة بسط أفكاره وتحليل شخصيته للجيل الجديد، وذلك بالاقتراب من حدود رأي المؤرخ، ومناقشة كيفية حكمه على الفيلسوف وعلى أفكاره التي قد تناقض أو توافق أو تتفوق على أحكام مثقفين آخرين، سواء ممن عاصروا ابن نبي أو من الجيل اللاحق. مع محاولة الموازنة بين ما يرويه المعاصرون كشهود أو كصانعي أحداث وما يعتقد سعد الله كشاهد على الأحداث وكمؤرخ وناقد للتراث العربي الإسلامي، ينظر لما حدث ويحدث ككل متكامل وكحلقات تشد بعضها بعضا في سيرورة الزمن.

وعليه، ينطلق هذا الموضوع من إعادة رسم صورة الفيلسوف من خلال وجهة نظر المؤرخ، مروراً بتحليل الرأي وربطه بأفكار ابن نبي وفلسفته، ووصولاً إلى تقييم الرأي والخروج باستنتاجات ذات مغزى عن صورة الفيلسوف في عيون مؤرخ معاصر له.

والبداية ستكون من هنا..

1-صورة مالك بن نبي في مؤلفات سعد الله

يقدم سعد الله مالك بن نبي للقراء بأنه "مثقف جزائري وُلد في مطلع العشرين، ونشأ في ظلّ مجتمع يمر بمرحلة تحوّل خطيرة يفقد فيها تدريجيا قيمه ورموزه الحضارية من جراء التأثير الاستعماري الذي حدث على مدار

السنوات السبعين من الاحتلال". (على خطى المسلمين - حراك في تناقض-، صفحة 236) ولا يملك المرء هنا إلا أن يعترف بنباهة سعد الله ودقته حين ربط بين بدايات ابن نبي والمحيط الذي نشأ فيه وبين السياسة الاستعمارية. وهو ما يدفع للتساؤل حول حدود مساهمة هذه البدايات في تشكيل ملامح شخصية ابن نبي ومواقفه مستقبلاً؟

1-1 البدايات والمؤثرات

يذكر المؤلف أن ابن نبي ينتمي إلى بيئة مزدوجة "ففي قسنطينة حيث ولد سنة 1905، كان يجد حياة المدينة العربية الإسلامية من جهة والمدينة الأوروبية من جهة أخرى؛ وفي تبسة حيث أصول والدته وحيث درس المرحلة الابتدائية، وجد ألفي سنة من تاريخ الجزائر ممثلة في بقايا الآثار الرومانية وفي الزوايا الصوفية". وفي تبسة أيضاً تجاورت الثقافة العربية الإسلامية وقيم البداوة الأصيلة إلى جانب الثقافة الأوروبية الوافدة. وعندما التحق ابن نبي سنة 1921 بمدرسة قسنطينة، كانت المدينة تعرف نشاطاً جديداً كغيرها من المدن، فظهرت فيها الصحف وحركة ابن باديس التعليمية، وضجت مقاهيها وساحاتها بالحديث عن السياسة والفن والزعامات وحركة الأمير خالد ومسألة الخلافة الإسلامية. (تاريخ الجزائر الثقافي ج.7، الصفحات 211-213)

وكان ابن نبي شاهداً على عائلات أخذت تفقد أصالتها وتقلد الأوروبيين، فلا تتورع عن شرب الخمر وممارسة القمار والتخلي عن الملابس العربية الأصيلة. وفي المشهد المقابل "كان الفقراء يزدادون فقراً لانتزاع أراضيهم وإعطائها للكولون، ولتطبيق قوانين الأنديجينا في الغابات والرعي وفقدان التوازن بين المدينة والريف". (تاريخ الجزائر الثقافي ج.7، الصفحات 211-212) هذا التحول في هوية المجتمع من جهة، والتناقض الاجتماعي الصارخ بين الأهالي الجزائريين والمستوطنين الفرنسيين، سيكون له أكبر الأثر في إحداث نقوش عميقة في ذاكرة ابن نبي، ودوافع قوية لتوجهاته بشكل لم تحدثه فيه حتى المدرسة الاستعمارية التي انتسب إليها لاحقاً! فالأساس الذي يركز عليه سعد الله عند تحليله لعوامل بناء شخصية ابن نبي، وتبلور تفكيره تجاه الذات وتجاه الآخر وتجاه الزمان والمكان وسيرورة الأحداث وتشكل التاريخ، هو تجربة ابن نبي مع هذه التناقضات وملاحظاته على معاملة الإدارة الاستعمارية ممثلة ابتداءً بإدارة المدرسة نفسها. (على خطى المسلمين - حراك في تناقض-، صفحة 265)

يذكر سعد الله عن تعليم ابن نبي أنه كان مزدوجاً، فتعليمه الابتدائي كان في المدرسة الفرنسية الوحيدة بتبسة، وفي نفس الوقت كان يتردد على الكتاب لحفظ القرآن واكتساب الثقافة العربية بتوجيه من عائلته، لكنه لم يتجاوز في الحفظ سورة (سبح لله). وفي قسنطينة واصل تعلمه في المدرسة الفرنسية الوحيدة أيضاً والمفتوحة بقيود لأبناء

الجزائريين الذين يرغبون في الالتحاق بالإدارة الفرنسية، واستطاع ابن نبي الحصول على مقعد في هذه المدرسة بسبب صداقة والده (الذي كان موظفا في البلدية المختلطة بتبسة) للحاكم الفرنسي. (تاريخ الجزائر الثقافي ج.7، صفحة 212) ومما لفت انتباه سعد الله من قراءته لمذكرات ابن نبي أن هذا الأخير أكثر من ذكر معلميه ومعلماته الفرنسيين، بينما يكاد لا يذكر من شيوخه المسلمين سوى ثلاثة أو أربعة، وفي مرات قليلة. وقلما يذكرهم بإعجاب وإيجابية عكس معلميه الفرنسيين الذين أثروا فيه تأثيرا عميقا، بينما الثقافة العربية التي تلقاها على يد بعض شيوخ المدرسة الكتانية (في قسنطينة) لم تترك -حسب سعد الله- سوى بصمات خفيفة على تفكير ابن نبي. (على خطى المسلمين - حراك في تناقض-، صفحة 265)

وفي حديثه عن المدرسة الفرنسية التي قضى فيها ابن نبي أربع سنوات بقسنطينة، لا يغفل سعد الله عن الإشارة لرأي ابن نبي في مدير هذه المدرسة، المستشرق الفرنسي الخبير بشؤون الأهالي "دورنون"، الذي يقول عنه ابن نبي "إنه كان استعماريا حقودا، وإنه كان يفضل الطلبة (الأهالي) الخاملين، ويتوجس من الأذكياء ويعدهم في صف "الشبان الأتراك" الذين كان يطاردهم، ويتهمهم بالشيوعية تارة وبمعاودة فرنسا تارة أخرى، وقد تعرض ابن نبي على يديه إلى عدة مضايقات". (تاريخ الجزائر الثقافي ج.7، صفحة 213)

وفي الفترة التي أعقبت تخرج ابن نبي من المدرسة (1925-1930) اشتغل في عدة أماكن ووظائف، وهذه التجارب كشفت له، وهو لا يزال يتفتح على العالم والحياة، عن حقائق مذهلة: "استعلاء الاستعمار ورضوخ الأهالي، وتناقض الشخصيات الموظفة ونفاقها: فالقاضي كان مدمن خمر، ورجل الطريقة الصوفية كان مدّعيا، والناس يغيرون جلودهم كل يوم، فهذا يتحول من مفسد إلى مصلح، وذلك عرييد ولكن قلبه نقي كالثلج، وهذا يتظاهر بما ليس فيه فهو وطني من جهة ومخبر للإدارة الاستعمارية من جهة أخرى. وهناك التنافس المستهجن بين رجال الدين الرسميين ورجال الدين الأحرار ورجال التصوف، ونفاق الزعماء السياسيين سواء كانوا من أنصار الاندماج أو من أنصار الاستقلال". (تاريخ الجزائر الثقافي ج.7، صفحة 215)

سيكون لهذا أثره لا محالة في صقل وتكوين شخصية ابن نبي، لكن الأثر الأكبر -حسب سعد الله- سيحدث لابن نبي حين يسافر للدراسة في فرنسا سنة 1930. وكانت أول صدمة للفتى المليء بالأحلام معاملته كأهلي من "المستعمرة" الجزائر في بلد "الحرية والمساواة والعدالة"! فلم يتمكن من دخول مدرسة اللغات الشرقية التي كان يرغب فيها، ودرس في النهاية بمدرسة اللاسلكي. وكان ابن نبي أثناء سنوات دراسته بباريس قد تزوج من فرنسية أسلمت وتسمت باسم (خديجة)، وشارك في أنشطة طلبة شمال إفريقيا، واكتشف العالم الآخر من خلال شخصية

المستشرق ماسينيون الذي وظفته دولته ليكون عينها على أبناء المستعمرات وعلى القضايا العربية والإسلامية، ومن خلال الانشقاقيين الجزائريين الذين باعوا أنفسهم للشيطان (على حد تعبير ابن نبي). واشترك ابن نبي في منتدى الوحدة المسيحية وشارك في نشاطاته، وفي نفس الوقت كان على صلة بالطلبة المغاربة والمشاركة، وهم زعماء المستقبل في المنطقة سياسيا وفكريا كما يقول سعد الله. (تاريخ الجزائر الثقافي ج.7، الصفحات 215-216)

إن سعة ثقافة ابن نبي باللغتين العربية والفرنسية يوعزها سعد الله إلى نهم الرجل الشديد للقراءة، فكان "يبالغ في المطالعة في الكتب الأدبية والتاريخية والفكرية، وسواء كانت الكتب عن الإسلام وحضارته أو عن الفكر البشري عموما، فالرجل كان يلتهم الأفكار ويحتفظ بها لوقت الحاجة". ويرى سعد الله أن ابن نبي "كما تشبع بالفكر الإصلاحية تشبع أيضا بالفكر القومي فأمن بالوحدة العربية وحارب الشقاق، وكان يحضر جلسات في مقهى يستمع إلى الطلبة يلقون قصائدهم في تمجيد العرب"، ورغم أنه كان يعد نفسه "وطنيا" إلا أن عدم انتمائه إلى هيئة أو حزب جعله يحتفظ باستقلاله الفكري وحرية النقد. ولكن استقلاله وحرية -حسب سعد الله- "لم ترضيا كل الناس، وربما جلبتا له المتاعب، فتمرده الظاهري على اللباس التقليدي (وهو في تبسة وقسنطينة)، ومغامرته الأولى في فرنسا، وزواجه من فرنسية، وانضمامه إلى منتدى الوحدة المسيحية، واختلاطه بشباب من الفرنسيين واليهود، وأخذه من الأفكار دون تمييز، وقراءته للإنجيل وغيره منذ وقت مبكر، وعيشه في بيئة فرنسية، وصداقته لأشخاص هويتهم غير معروفة..." كل ذلك -حسب سعد الله- "يجعل دارسي ابن نبي يتوقفون ويتساءلون قبل أن يصدرُوا أحكامهم". (تاريخ الجزائر الثقافي ج.7، صفحة 218)

ولعل مثل هذه التساؤلات هي التي دفعت سعد الله لاحقا لدراسة رأي ابن نبي في مظاهر الحضارة الغربية من خلال "مذكرات شاهد القرن". وبدون أن يخوض عميقا في تأثير هذه الحضارة على ابن نبي، عرض سعد الله بسلاسة وتسلسل أهم المراحل التي مر بها تشكل الرأي عند ابن نبي تجاه الحضارة الغربية، بدءًا من اتصاله السلبي بهذه الحضارة في الجزائر عندما كانت تعرض عليه التناقض الاجتماعي والأخلاقي الذي اتخذ شكل صراع حاد بين العناصر الأهلية (الوطنية) وبين العناصر الاستعمارية؛ مرورًا باستقراره في باريس وانتسابه لمدرسة اللاسلكي وزواجه من فرنسية وانخراطه في منتدى الوحدة المسيحية وممارسته لمختلف النشاطات مع أوروبيين وغير أوروبيين؛ وصولًا إلى الشخصيات التي قابلها والأماكن التي زارها والكتب التي قرأها والأفكار التي سمعها وتشربها وأعجب بها. وفي الأخير خلص سعد الله للقول إن ابن نبي "تأثر بالحضارة الغربية بعد دراستها من جوانبها المضيئة والقاتمة، واختار منها ما رآه في صالح شباب العالم الثالث، وهو الحضارة التقنية وحب العمل والاعتماد على النفس وتقدير العلاقة بين الإنسان

والزمان والمكان"، وكانت فكرته التي بنى عليها أحد اتجاهاته لاحقا هي أن يتحول العالم العربي والإسلامي من مستهلك للحضارة إلى منتج لها. (على خطى المسلمين - حراك في تناقض -، الصفحات 282-283)

1-2 علاقات ابن نبي وتأثيره في محيطه

حين يتحدث سعد الله عن علاقات ابن نبي وتأثيره في محيطه، يكاد يحصر هذا الجانب في اتجاهين: اتجاه مردييه ومحبيه من الطلبة والمتأثرين بفكره ونظرياته، واتجاه منافسيه والمتخوفين من تأثيره على نخبة من الشباب الملتف حوله بغض النظر عن أوطانهم وميولهم.

أما عن مردييه وطلبته من المغرب والمشرق العربيين فيذكر سعد الله أنهم كانوا يستمعون لمحاضراته وينتظمون في حلقاته بالقاهرة، وكان سعد الله نفسه قد نظم بعض هذه اللقاءات عندما كان مسؤولا عن الشؤون الثقافية في اتحاد الطلبة الجزائريين. وبعد الاستقلال التقى سعد الله بابن نبي في الجزائر، وعاصر تأثيره في فئة من طلبة جامعة الجزائر ومحيطها رغم أن ابن نبي لم يكن محاضرا أو أستاذا فيها، وإنما كان مديرا للتعليم العالي (بمثابة رئيس الجامعة اليوم). ولاحظ سعد الله أن الطلبة الذين ارتبطوا بابن نبي في الجامعة بقوا يترددون على حلقاته التي كان يعقدها في منزله، كما ألهمهم بفكرة تنظيم ملتقى سنوي تحت عنوان ملتقى الفكر الإسلامي، وهو الملتقى الذي تبنته بعده وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، وأصبح قطبا فكريا يحج إليه كل سنة عدد من مفكري العالم الإسلامي ومن المستشرقين ومن طلبة الجامعات، كما يقول سعد الله. (بريون، 2010، صفحة 12)

ويذهب سعد الله للقول إن قيادة الثورة الجزائرية - وربما المصرية أيضا - كانت "لا تنظر بعين الرضا إلى هذا الرجل المعتد بنفسه وبفكره، والناقد للمجتمع من حوله، والمبشر بعالم آسيوي-إفريقي جديد يقول عنه إنه يمتد من جاكرتا إلى طنجة". (بريون، 2010، صفحة 12) وربما هذا ما جعل علاقة ابن نبي بالحركة الوطنية الجزائرية يسودها البرود والتوجس، فسعد الله يومئ إلى أن ابن نبي "يمثل مدرسة فكرية مستقلة بين المدارس الفكرية التي عرفتها الجزائر منذ الحرب العالمية الأولى، فلا هو من تيار المدرسة الاستعمارية التي نشأ فيها أمثاله وأخذوا علمها ولغتها، أي تلك النخبة الاندماجية أو النخبة الإسلامية التي رضيت بالوظيفة بعد التخرج واكتفت بما تطعمها به الإدارة الفرنسية، ولا هو من تيار المدرسة السياسية التي أنشأها الأمير خالد ثم نجم الشمال الإفريقي ثم حزب الشعب، إذ كان ابن نبي كثير النقد لهذه المدرسة ولا سيما أثناء زعامة مصالي الحاج لها.

ولم يكن ابن نبي من التيار السياسي الآخر الذي تبناه الدكتور ابن جلول وفرحات عباس، لأن هؤلاء كانوا في نظره متعالين، ومن ثمة كان أيضا كثير النقد لهم. ورغم أنه كان يحس بطبيعته أنه من تلاميذ مدرسة ابن باديس،

فإنه كان أيضا بعيدا عنهم لضيق مجالهم وتخليهم عن دورهم الأساسي - في نظره - ثم لسداجتهم. وهكذا كان ابن نبي كثير النقد للمدرسة الإصلاحية أيضا، ولم يسلم من نقده لا ابن باديس ولا العقبي ولا التبسي". وهذا ما جعل سعد الله يقول إنه "كان مستقل الفكر ويمثل مدرسة على حدة". (تاريخ الجزائر الثقافي ج.7، صفحة 211)

ويكشف سعد الله النقاب عن فكرة مهمة جدا تتعلق بعلاقة المثقفين الجزائريين والمثقفين الفرنسيين، وهي العلاقة التي حاول أن يشرح من خلالها فكرة أنه رغم اتفاق اللغة مع الآخر فإن كتاب الجزائر بالفرنسية لم يستطيعوا أن يتجردوا من تقاليدهم ومعتقداتهم. وفي هذا الإطار يشرح سعد الله رأي ابن نبي عن فرانز فانون، "فالرجلان تعاصرا وتشابها في التفكير الثوري والانتماء إلى الجزائر الرفاعة علم الحرية، لكنهما اختلفا اختلافا بيّنا في طبيعة الولاء وعمقه والهدف منه، لأنهما ينتميان روحيا ووطنيا وعمليا إلى مدرستين مختلفتين: مدرسة تتبع فلسفتها من داخل الجزائر، ومدرسة تستمد حيويتها من خارج الجزائر". وقد قارن ابن نبي بين فانون وبين غيره في العلاقة بالجزائر وثورتها وتقاليدها ودينها، وهذا الغير ليس سوى ابن نبي نفسه حسب اعتقاد سعد الله، فابن نبي يشيد ويقدر أعمال فانون تجاه قضية الجزائر، لكنه في الوقت نفسه يعتبر فانون غير قادر على قيادة "نشيد" النضال والعمل للشعب الجزائري "لأنه لا يغوص إلى الجذور العميقة في ذاتية هذا الشعب، ولا هو يعانق كلية موضوعيته الاجتماعية والتاريخية"، والمقصود هنا أن الزعيم يجب أن يخرج من رحم الشعب حتى يمكنه أن يتقمص روحه الأصلية. لذلك ابن نبي يصل في نهاية المطاف إلى هدفه وهو تجريد فانون من حق التنظير للثورة الجزائرية، ذلك أنه لكي يتكلم الإنسان لغة شعب معين (كالشعب الجزائري) يجب أن يقاسمه معتقداته، فكيف يصح ذلك مع فانون وهو إنسان ملحد؟ (على حد تعبير ابن نبي). (تاريخ الجزائر الثقافي ج.7، الصفحات 134-135)

1-3 علاقات ابن نبي وتأثيره في محيطه

لا شك أن ابن نبي الذي يجرد فانون وأمثاله من حق التنظير للثورة الجزائرية لأنه لا يقاسم الشعب الجزائري نفس المعتقد والروح، لم يترك المجال فارغا دون أن يسعى لشغله بأفكاره وفلسفته هو. وسعد الله حين تناول بعض مؤلفات ابن نبي يركز على قيمتها الفكرية والفلسفية في التنظير للثورة وصياغة قوانينها وسير حركتها. فابن نبي حسب سعد الله هو أكثر المؤلفين الجزائريين من حيث الإنتاج الفكري خلال الثورة، في مجال يتضاءل فيه عادة الإنتاج الفكري وتكثر فيه الحركة والكلام. ويرى سعد الله أن ابن نبي وجد في الاستعمار والفقر موضوعا للبحث في الإنسان الجزائري وحالة المسلمين المحرومين، وأن الثورة فجّرت عبقرية ابن نبي في الفلسفة، وعندما كان يحلل الاستعمار

والفقر كان فصيحاً كل الفصاحة، بعكس عندما كان يتحدث عن القضايا الاجتماعية والتاريخية فقد كان لا يفصح عن رأيه بكل وضوح كما ألمح إليه سعد الله. (تاريخ الجزائر الثقافي ج.9، صفحة 591)

من المؤلفات التي نوه بها سعد الله كتاب "هوية الإسلام" الذي كان له صدى طيباً عند القراء لأنه -حسب سعد الله- كان يمثل "إدانة منطقية واعية للاستعمار وتبشيراً بإرهاصات نهضة شاملة للإسلام والجزائر". وجاء فيه أن ما يصنع تاريخ العالم الإسلامي اليوم ليس المؤامرات الخارجية التي تشل نهضته مؤقتاً، ولكنه العمل الخفي والمستमित لحركيته العميقة. لذلك خصص مالك بن نبي -حسب سعد الله- هذا الكتاب للعمل من أجل توجيه هذه الحركة، منوهاً في الغلاف أن هدف الكتاب هو جعل الأوروبي يفهم العالم الإسلامي فهماً حقيقياً، ومنبهاً القارئ المسلم أن يعي مؤهلاته التقليدية والأوضاع الحاضرة لعصره. وأشاد سعد الله بتنويه بعض المثقفين بالكتاب، على غرار أحمد توفيق المدني ومولود الطيب الذين اعتبروا ابن نبي فيلسوفاً عالماً ومؤرخاً دقيقاً للحضارة ومنظراً واعياً لمسيرة الإسلام. وقال المدني إن المؤلف (ابن نبي) متضلّع في الهندسة والرياضيات وإنه يحسن الفرنسية أكثر من أهلها، وإن الكتاب (هوية الإسلام) فلسفي علمي يدرس حالة العالم الإسلامي بعد سقوط دولة الموحدين وسقوط العالم الإسلامي تحت الاستعمار ودخوله في حالة جمود وتخلف. أما الطيب فقال إن ابن نبي في هذا الكتاب يقدم آراءه بطريقة واضحة شافية، وإنه يمتاز بفهم دقيق لا يصدر إلا بعد تجربة ودراية، وأنه يدقق في مكانة الثقافة ومعناها، وأنه أكثر فهماً للإسلام من الغربيين باعتباره يكتب عنه من الداخل. (تاريخ الجزائر الثقافي ج.9، صفحة 594)

ويرى سعد الله أن ظهور "هوية الإسلام" (الذي يترجمه البعض باسم "رسالة الإسلام") جاء في وقته، لأن الثورة كانت تبحث عن إيديولوجية تقودها، وهي تفتقر، إلى ذلك الحين، لمرجعية تعتمد عليها في صياغة قوانينها وسيير حركتها. غير أن سعد الله لم يبت في مدى رواج مؤلفات ابن نبي ومقروئيتها في أوساط نخبة الثورة، وبالتالي لا يُعرف مدى تأثير أفكاره على سير شؤون الثورة وتفكير رجالها حسب رأي سعد الله. لكن هذا الأخير يشير إلى وجود دلائل تدل على أن فكر مالك بن نبي لم يؤثر على نخبة الثورة بقدر ما أثار عليها الفكر الماركسي ممثلاً في كتابات فرانز فانون وأمثاله. ولعل هذا ما جعل سعد الله يعلق لاحقاً على كتاب "آفاق جزائرية" الذي أصدره ابن نبي سنة 1962، بأنه ناقش قضايا الحرية والمفاهيمية وميراث الجزائر من الاستعمار، وعالج مسألة الإنسان الجزائري وكيف خلقت منه الثورة إنساناً جديداً، لكن هذا الإنسان رجع إلى أصله بمجرد وقف القتال وإعلان نهاية الثورة! لقد كان الكتاب يعبر عن الروح الثورية التي لم تصمد أمام التهافت على الكسب ورأس المال والسباق إلى المناصب ابتداءً من أعضاء الحكومة المؤقتة، حسب تعبير ابن نبي نفسه. (تاريخ الجزائر الثقافي ج.9، صفحة 595)

1-4 أفكاره ابن نبي ومواقفه ونظرياته

يقول سعد الله إن ابن نبي من الكتاب ذوي الإنتاج الغزير والنظرة الشمولية إلى العالم وإلى الأشياء، وصنّفه ضمن العلماء المجتهدين الذين استمدوا حججهم العقلية من التراث نفسه وانطلقوا في سبيل النهضة، والذين كان عليهم أن يوائموا بين تعاليم الدين وحاجات العصر، وأن يواجهوا مشكل التخلف بمختلف مظاهره. وقد تطرق سعد الله لرأي ابن نبي في التاريخ والدين والسياسة، وتحدث عن نظريته في الحضارة مثلما سيأتي ذكره لاحقاً. ويرى سعد الله أن موقف ابن نبي من التاريخ يتقارب مع موقف الإبراهيمي، لكن ابن نبي أعطى التاريخ معنى أعمق وأوسع، فهو يقول "كل شعب يجب أن يصنع تاريخه بوسائله الخاصة، وبأيديه ذاتها... والتاريخ في أي مستوى من الحضارة يتم إنجازه إنما يمثل النشاط المشترك للأشياء والأشخاص والأفكار المتاحة في ذلك الحين بالذات". ويعلق سعد الله على موقف ابن نبي بأنه "تحدث عن صنع التاريخ وليس كتابته أو منهجه، لكنه في النهاية جعل الأشياء والأفراد كلهم يشتركون في صنع "ذرات" التاريخ في نفس الوقت، وفي لحظة ما من نبض الزمن. وبذلك يكون التاريخ هو حقيقة أمة بأسرها، كيف تحس به، كيف تتمثله، كيف تلده؟ ذلك هو سر التاريخ لكل أمة ولن تنوب عنها في إعطائه الحياة أية أمة أخرى" حسب تعبير سعد الله. (تاريخ الجزائر الثقافي ج.7، صفحة 158) و(تاريخ الجزائر الثقافي ج.9، صفحة 560)

وأوماً سعد الله إلى أنه حين أثارت جريدة المنار (فبراير 1953) قضية "الوحدة الوطنية" وكيفية تحقيقها، كان ابن نبي من المشاركين الذين أدلوا بدلوه في النقاش، وقال "إنّ جوابه على السؤال موجود في كتابه "شروط النهضة"، ومع ذلك شارك برأيه قائلاً إن الذي يهمنا هنا هو إدراك الدستور الذي من شأنه أن يرفع نصب الحياة من الحضيض الذي نشاهده، إلى المستوى الذي يطمح إليه الفرد أو المجتمع، بطبيعة الشيء المسطر في غريزة بني الإنسان. وفي نظره أن المشكل في الجزائر إنما هو قبل كل شيء عائد إلى أصول اجتماعية عامة، لا تخص طورا من الحياة البشرية دون الأطوار الأخرى، ولا عنصرا منها دون العناصر الأخرى، بل تشملها في جميع مراحلها، تارة من حضيض إلى حظ وتارة من حظ إلى حضيض". (تاريخ الجزائر الثقافي ج.9، صفحة 66) والواضح أن ابن نبي هنا لا يكتفي بتحديد المشكلة بل يقترح العلاج لحلها مثلما هو منهجه.

وحين تطرق سعد الله لكتاب "الظاهرة القرآنية" ركز على الأساس الذي انطلق منه ابن نبي في اتجاهه الفكري، وهو "تنوير الشباب الإسلامي وربط الحاضر بعهد النهضة الإسلامية الأولى، وبث روح الأمل والانطلاق نحو نهضة إسلامية جديدة". وهو الكتاب الذي عالج فيه ابن نبي دلائل النبوة، وعلم التفسير، ومسألة إعجاز القرآن، ومقارنة النصوص القرآنية ببعض نصوص الكتب المقدسة الأخرى. كما رد فيه على بعض آراء المستشرقين في مسألة الأصول

النفسية والأدبية للتراث العربي قبل الإسلام وصلته بالقرآن وإعجازه. واعتمد فيه ابن نبي -حسب سعد الله- على بعض النظريات الحديثة وثقافته العلمية الواسعة وعلى بعض المذاهب النفسية والأدبية التي ظهرت منذ الحرب العالمية الأولى، من أجل إثبات نظريته في إعجاز القرآن ودلائل النبوة. وخلص سعد الله للقول إنَّ عصر ابن نبي شهد حرب ثقافات مستعرة، أو كما يسميه ابن نبي "صراع الأفكار"، وهي الحرب التي شنّها المستشرقون على العقل المسلم لإدخال الشك إليه في الأصول القديمة التي قامت عليها أدلة إعجاز القرآن، وتدمير الوسائل المؤدية إلى ذلك، فجاء "الظاهرة القرآنية" حسب سعد الله لإثبات إعجاز القرآن الكريم والدفاع عن ظاهرة النبوة والرد على المستشرقين ومن سار في ركابهم مثل طه حسين، حين شككوا في الشعر الجاهلي. (تاريخ الجزائر الثقافي ج.7، صفحة 28)

وكان سعد الله قد استمع وهو في القاهرة لمحاضرة ابن نبي عن نظريته في الحضارة، فقال عنها "إن ابن نبي له نظرية خاصة به في مسيرة الحضارة الإنسانية، فهو يؤمن بأن الحضارة تمر بدائرة وتعبها عبورا جديا دائما، وكل حضارة تحافظ على نفسها باستجابة محددة من المتشابهات المتعاقبة، وهذه المتشابهات تتألف من عناصر ثلاثة هي الإنسان والتراب والوقت. وكل مجتمع يمر حضاريا بمراحل ثلاثة هي قوة الدفع، وهي بالنسبة للحضارة الإسلامية عصر النبوة (فترة الحكم بالقرآن) والخلفاء الراشدين إلى معركة صفين. وشهدت المرحلة الثانية ازدهار الثقافة الإسلامية والحضارة، وهذه المرحلة قد استمرت، في نظره، إلى سقوط دولة الموحدين في المغرب العربي (القرن السابع الهجري). وتتمثل المرحلة الأخيرة في الجمود والانحطاط الذي أصاب الحضارة الإسلامية". ويضيف سعد الله إن الهم الذي كان يشغل ابن نبي هو البحث عن سبيل للخروج من هذا الانحطاط والجمود واستعادة دورة التاريخ الحضاري في جدليته الخالدة والبحث عن نقطة الانطلاق الجديدة. فدرس ابن نبي ظاهرة التخلف والقابلية للاستعمار، وحاول إيجاد سبيل للتغيير الذاتي بناءً على الآية الكريمة: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم". ولاحظ سعد الله أن الحداثة التي قصدها ابن نبي تختلف عن تلك التي تشيع اليوم بين جيل من المثقفين، فهي ببساطة تعني عنده مفهوم التقدم والإيمان بالتطور والتغيير. (تاريخ الجزائر الثقافي ج.7، صفحة 220) و(تاريخ الجزائر الثقافي ج.9، صفحة 591)

2- مناقشة طبيعة علاقة ابن نبي بالحضارة الغربية

حاول البحث أن يجمع شمل الأفكار والآراء التي بثها سعد الله في مؤلفاته عن مالك بن نبي، فتوصل إلى فكرة مشتركة يمكن استخلاصها كنقطة ارتكاز في هذا الموضوع، وهي علاقة ابن نبي بالحضارة الغربية: في الجزائر

وفي فرنسا، كفكر ونظريات وكواقع وممارسة، كحضارة راقية في أرضها وكاستعمار مدمر في أرض غيرها، كموقف تجاه الموروث التليد للشرق وكإحساس بالمفارقات الفكرية بين "الأنا" و"الآخر"!

إن المرء يقف هنا متسائلا بتؤدة: كيف ساهمت هذه العلاقة في صياغة فكر ابن نبي وتشكيل نظرياته وتحديد فلسفته تجاه الدين والسياسة والحضارة والعلاقة بالآخر؟ بل كيف استحضر العلاقة بالذات، التي انطلق فيها من خصوصيات المسلمين التراثية والدينية، ووجه سهام النقد إلى الداخل من خلال علاقته بالآخر؟

حين عرّف سعد الله بابن نبي ركز على محيطه الذي نشأ فيه، ولاحظ أن الأساس في بناء شخصية ابن نبي وتبلور تفكيره تجاه الذات وتجاه الآخر ليس المدرسة الاستعمارية التي قضى فيها ابن نبي جل سنّ طفولته ومراهقته، بل أثر فيه -حسب سعد الله- ذلك التحوّل الرهيب في هوية المجتمع من جهة، والتناقض الاجتماعي الصارخ بين الأهالي الجزائريين والمستوطنين الفرنسيين من جهة أخرى. فالصورة الأولى تلخص طبيعة الصراع الجديد بين الثابت والمتحول وبين الموروث الأصيل والمجتلب المقتبس الذي امتحن به المجتمع الجزائري في أخلاقه وعاداته وطبائعه بفعل احتكاكه بالوافدين عليه من الضفة الشمالية للمتوسط! وتعبّر الصورة الثانية عن خطورة التغييرات التي أحدثتها الاستعمار نفسه في بنية المجتمع الجزائري، والتي تولّدت عنها الطبقية والعنصرية والتمييز بين السكان الأصليين وبين المستعمرين الناهيين. وأمام كلا الصورتين وقف ابن نبي ملاحظا ومتسائلا ومقارنا ومتألّما، مما أدى لحدوث "نقوش عميقة في ذاكرته ودوافع قوية لتوجهاته" فيما بعد، على حد تعبير سعد الله.

في الجزائر كان احتكاك ابن نبي الأول مع الحضارة الغربية في شكل الاستعمار الفرنسي، وقد حفلت مذكراته بالمقارنات والملاحظات عن علاقة الصراع بين الإنسان الأهلي (المستعمر) والإنسان المستعمر. وهو الصراع الذي عايش ابن نبي نفسه جانبا منه أثناء دراسته في المدرسة الكتانية بقسنطينة بسبب مدير المدرسة العنصري "دورنون"، وأيضا أثناء تولي وظيفة (عدل) في منظومة القضاء الإسلامي الخاضع للإدارة الفرنسية بعد تخرجه من المدرسة الكتانية، ولا شك أن هذه التجربة قد طبعت في نفسه صورة الغرب المتوحش والمتسلط والعنصري. وعندما انتقل إلى باريس للعيش والدراسة (سنة 1930) كان ابن نبي على دراية باللغة الفرنسية والقيم الأوروبية، لكنه لم يكن يعرف عنها غالبا سوى الجوانب السلبية -حسب سعد الله- واصطدم هناك مجددا بالوجه البشع للحضارة الغربية متمثلا في ازدواجية المعايير بين المعيار العلمي والمعيار السياسي، وتحطيم آمال شباب المستعمرات حتى لا يصلوا إلى نتيجة، وهو ما عانى منه ابن نبي حين أراد الدخول إلى مدرسة اللغات الشرقية وتمت عرقلة بعد مقابلة أجراها مع المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون. (على خطى المسلمين -حراك في تناقض-، صفحة 267)

من جانب آخر كان ابن نبي قد تعرف على الوجه المشرق للحضارة الغربية في الجزائر حين تتلمذ على يد معلميه الفرنسيين في تبسة وقسنطينة، وقد مرت بنا ملاحظة سعد الله عن مدى تأثر ابن نبي بمعلميه الفرنسيين دون معلميه الجزائريين. وحين انضم إلى مدرسة اللاسلكي بباريس اعتبر ابن نبي دخوله إلى هذه المدرسة دخولا في الحضارة الغربية من طريق جديد. (بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، 1984، صفحة 219) مما يعني -كما أوعز سعد الله- أن وجود ابن نبي في مدرسة اللاسلكي قد فتح له آفاقا جديدة اندمج من خلالها في الفكر الغربي. (على خطى المسلمين -حراك في تناقض-، صفحة 268)

وكان ابن نبي -منذ إقامته في الجزائر- على صلة بالمراكز التبشيرية، ولم يجد حرجا في التعرف على الإنجيل والتناقش مع الرهبان وقادة الفكر المسيحي، وعندما سافر إلى باريس انضم إلى "الوحدة المسيحية للشبان الباريسيين" التي يصفها في مذكراته بعبارات الإعجاب والإشادة بنظامها والمسؤولين عنها، وهم من القساوسة، واعتبر انضمامه إليها واحتكاكه بأهلها أول اختبار أخلاقي له في العالم الجديد، لأنه ذكر في الاستمارة دينه بكل وضوح. بل إنه يعترف أن الوحدة هي المكان الذي تكامل فيه "تكوينه الروحي"، وأضاف إلى ذلك توضيحا جاء فيه "ولابد من القول للحقيقة إن ضميري تفتح فيه (مقر الوحدة) إلى كل المشكلات التي شغلت حياتي حتى هذه الساعة" يقصد أوائل الستينات. (على خطى المسلمين -حراك في تناقض-، صفحة 269) و(بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، 1984، صفحة 209 و211)

هذا الكلام يدل بما لا يدع مجالا للشك على أهمية احتكاك ابن نبي بالحضارة الغربية في تشكيل شخصيته الناقدة، وصياغة أفكاره، وتعميق رؤيته لمجتمعه وللآخر. ومن يقرأ لابن نبي يلاحظ بوضوح الحضور الغربي المكثف في ثقافته ومناقشاته واهتماماته، ولعله لو لم يذهب إلى الغرب ولم يعيش في قلب الحضارة الغربية لما أمكنه أن يكتب عن الأفكار التي كتب عنها بمثل ذلك العمق النابع من تجربة ثرية. والملاحظ أنه بدأ منذ ذلك الوقت المبكر في محاولة ربط المسلمين بأفكار الحضارة الغربية، فإعجابه بالوحدة المسيحية وفعاليتها وأسلوبها في التعامل مع الشباب، دفعه للعمل على جذب شباب المغرب العربي الذي يعيش في باريس ليتعلموا منها الفعالية والأسلوب أو ما سماه ابن نبي "دروسا في الحضارة"، ليتمكنوا من تجاوز سلبيات الأهواء والزعامات الفارغة والانشقاقات الحزبية، بل حتى فقدان الهوية والولاء والوحدة بينهم. (على خطى المسلمين -حراك في تناقض-، صفحة 270)

واللافت للانتباه في اتصال ابن نبي بالحضارة الغربية أنه فرّق بين الوجه البشع، الذي يمثله الاستعمار وتدل عليه بعض المساوئ والتجاوزات الحاصلة في مجتمعاتهم، وبين الوجه المشرق لهذه الحضارة، لذلك هو لم يقف موقفا

متطرفا من الغرب ولم يبالغ في التحرز من الاختلاط بغير المسلمين، فقد نزل في منازلهم، وأكل من طعامهم، وجلس إلى مادبهم، وشاركهم أفراحهم، ودخل إلى كنائسهم، ودرس في مدارسهم، واطلع على أفكارهم ونظمهم ومبادئهم وأيديولوجياتهم، وامتدح نشاطهم وحبهم للعمل وتقديرهم للعلاقة بين الإنسان والمكان والزمان، حتى أنه تزوج منهم، دون أن يجد في كل ذلك مانعا شرعيا أو حرجا أدبيا مادام متمسكا بهويته الإسلامية ومعترزا بتقاليد الشرق.

لا ريب أنّ ابن نبي يقدم هنا صورة عملية للمثقف المسلم الذي ينظر للآخر بإيجابية، بلا انبهار به وبلا استصغار للذات. ويبدو أنه يتجاوز هنا الإشكالية القائلة بالأخذ من حضارة الغرب أو عدم الأخذ بها التي كانت سائدة لدى مثقفي القرن التاسع عشر، إلى إشكالية أخرى تتعلق بالاحتكاك مع الغرب في عقر داره والانفتاح على ثقافته والانسجام مع عاداته من غير الذوبان فيها، ولعل في ذلك إشارة لطيفة إلى مناداة حية لفتح قنوات الحوار والتناقص بين الشعوب والحضارات، ودعوة صريحة للخروج من المحلية الضيقة إلى "العالمية" الواسعة للاستفادة من تجارب الآخرين واستثمارها فيما يفيد الأمة الإسلامية والإنسانية جمعاء. وكما ألمح سعد الله: "إن ابن نبي كان يدعو من خلال مذكراته المطبوعة إلى عالم عربي وإسلامي منتج للحضارة وليس مستهلكا لها". (على خطى المسلمين - حراك في تناقض -، صفحة 283) ولا ريب أن إنتاج الحضارة يمرّ أولاً عبر فهم مقوماتها، ومعرفة خصائصها الثقافية، واستيعاب جذورها المعرفية.

على أن التفتح على الغرب عند ابن نبي لا يعني التخلص من الموروث الحضاري للمسلمين، ولا يعني أن الحضارة الغربية هي النموذج المثالي الأرقى للحضارة الإنسانية، فمثلا تحتوي هذه الحضارة على عناصر القوة والتمكين (الجانب المادي)، فإنها أيضا تفتقد لعنصر الديمومة (الجانب الروحي)، وهو ما يعبر عنه ابن نبي بضغط عالم الأشياء المتراكمة: "وبقدر ما تراكمت الإمكانيات الحضارية اضمحلت القاعدة الأخلاقية الروحية المعنوية التي تتحمل في كل مجتمع عبء الأثقال الاجتماعية والأثقال المادية". (بن نبي، مجالس دمشق، 2005، صفحة 177) ومن هنا تأتي فكرة التواصل والمزج بين الحضارتين "الأوروبية والإسلامية" من أجل إنتاج حضارة أكمل وأرقى وأصلح للإنسانية جمعاء، إنها دعوة للحوار بين الحضارات بدل الصدام بينها.

وبالعودة إلى المؤثرات التي ذكر سعد الله مساهمتها في بلورة شخصية ابن نبي وفكره في مرحلتي الطفولة والمراهقة، يُلاحظ أن التأثير الاستعماري الغربي في المجتمع الجزائري، سواء بمسح هويته وشيطنة أخلاقه، أو باستغلاله واستعباده وإفقاره وتفكيكه، كان العامل الأشد وطأة على ابن نبي والدافع الذي جعله لاحقا يوجه سهام النقد إلى الداخل، فتصدى لدراسة ظاهرة التخلف و"القابلية للاستعمار"، ومشكلة الثقافة في العالم الإسلامي، بدل

الانشغال بدراسة ونقد الظاهرة الاستعمارية. وهو إذ لخص في نظرية القابلية للاستعمار نصف مشكلة الاستعمار، حاول تنبيه المسلمين لإلقاء الضوء على العيوب الداخلية في بناء المجتمعات التي وقعت ضحية الاستعمار، بعد أن كان التركيز المعتاد لحركات التحرر ينصب أساسا على الدور الذي قامت به القوى الاستعمارية في تأييد التخلف، أو حتى في صناعته من العدم. غير أن ابن نبي لم ينكر دور الاستعمار في صناعة التخلف وبالذات في الجزائر، وأكثر من ذلك كان يعتبر القابلية للاستعمار بحد ذاتها نتاجا لذلك الاستعمار، وليست مقدمة مسببة له. (بن نبي، شروط النهضة، 1986، صفحة 152)

الفكرة هنا تسلط الضوء على العامل الداخلي، بمحاولة إيجاد سبل الخلاص من ظواهر الاستعمار والتخلف والتبعية للغرب، عن طريق معرفة عيوب النفس والاشتغال على إزالتها أو تغييرها ذاتيا. فابن نبي لاحظ على المجتمع الذي نشأ فيه بتبسة وقسنطينة كيف كان يفقد تدريجيا قيمه ورموزه الحضارية جراء التأثير الاستعماري، وكان شاهدا على العائلات التي أخذت تفقد أصالتها وتقلد الأوروبيين، لا في التقنية وحب العمل وتقديس الوقت، بل في شرب الخمر ولعب القمار والتخلي عن الأصالة في اللباس، وغيرها من المفاسد. ورغم أن هذا الوضع يغذيه الاستعمار ابتداءً، لأن الاستعمار يتنافى أصلا مع القيم والمبادئ الإنسانية، لكنه يوضح بلا شك مقدار هشاشة موقف المسلمين المنحرفين في تيار المدنية الحديثة في جانبها السلبي فقط، وهو مشكل مازلنا نواجه تحدياته إلى اليوم. إنه ينبئ عن خلل عميق في تقدير الذات والاعتزاز بالهوية، وهو ما سيكون سببا في اضطراب الانتماء وتأرجح المواقف تجاه الأنا وتجاه الآخر، بين تحقير مخل أو تقديس مذل!

وعندما تأمل مالك بن نبي في حركة النهضة بالجزائر في سنوات العشرينات والثلاثينات، استنتج أن "قادة النهضة لم ينجحوا في الإعداد لها إعدادا منهجيا، وأن رواد حركة النهضة وتلاميذها -الإصلاحيين منهم والتحديثيين- لم يكونوا محددين في رسم أهدافهم ولا منظمين في تحديد وسائلهم وإعداد خططهم، فقد ظن الإصلاحيون بأن الحركة ستنتج عن طريق إحياء الإسلام على المستوى النظري الأكاديمي وفي الشكل المنطقي الصوري، فلجأوا إلى إحياء علم الكلام. ورأى التحديثيون أن تحقيق النهضة يفرض تبني الأفكار الغربية وما يتولد عنها من نظم اجتماعية ومعرفية ومن منتجات، من أجل تخطي هوة التخلف".

وكلا الرأيين هنا تجاهلا حقيقتين أساسيتين أثرتا بشكل واضح في النتائج التي وصلت إليها النهضة: الحقيقة الأولى، أن المسلمين لم يتخلوا عن عقيدتهم وإيمانهم، وإنما أخفقوا في تحويل روح الدين إلى تصرفات عملية في واقعهم، وبالتالي إصلاح العقيدة ليس هو الركيزة هنا. والحقيقة الثانية، أن انحطاط المجتمع ليس ناتجا عن نقص في

الوسائل المادية، بل هو ناتج عن المواقف النفسية والمفاهيم السلبية وعدم القدرة على الابتكار، وهو ما يستدعي تنقية الثقافة والأفكار والسلوك، لأن ثروة المجتمع -حسب ابن نبي- لا تقاس بمنتجاته ووسائله، بل بأفكاره الأصلية الدافعة. (بريون، 2010، الصفحات 24-25)

لا شك أن ابن نبي، الذي كان ناقدا لكل التيارات السياسية من حوله، ولم يسلم من نقده لا زعماء الاستقلال ولا دعاة الإدماج ولا حتى قادة الإصلاح، كانت رؤيته تجاه مشكلة الجزائر (ومشكلة العالم الإسلامي من خلالها) مغايرة تماما لما كان مألوفا حينها. ففي الوقت الذي كان يركز فيه غيره على الاستقلال السياسي وخوض معركة تحرير الأرض، كان هو يرى أن الاستقلال السياسي لن يكون حلا ناجعا ما لم تتم تصفية ما أسماه "القابلية للاستعمار" من النفوس. فجوهر المشكلة في نظره إنما هو "الحضارة" التي عبّر عنها بمعادلته الشهيرة (إنسان + وقت + تراب)، وبما أن الإنسان هو العنصر الأساسي في العملية الحضارية، فابن نبي وجّه اهتمامه للبحث في مشكلة الثقافة وعلاقتها بإعادة بناء دورة حضارية جديدة. لذلك هو لا يعتد ولا يعول كثيرا على التقدم السياسي ما لم يكن مصحوبا بالتقدم على المستوى الإنساني، وهذا لا يتم -حسبه- إلا بوثبة فكرية تنبثق عن تحول روحي، فبدون تجديد فكري ستؤول الأمور إلى التعصب!

تلك هي الأفكار التي عبّر عنها سعد الله بأنها كان يمكن أن تتحول إلى مرجعية فكرية وفلسفية للثورة وتستمر كإيديولوجيا للدولة الجزائرية بعد الاستقلال، لكنها للأسف غُيّبت، والروح الثورية التي بدأت جامحة، لم تصمد أمام التهافت الكبير على المناصب والمكاسب المادية!

3- كيف قيّم المؤرخ الفيلسوف؟

يقول سعد الله "عرفت ابن نبي مدة قصيرة وقليلة التأثير، وهي مدة إقامته في القاهرة خلال الخمسينات، حين جاء إلى هذه العاصمة طموحا إلى أن ينشر فكره خارج مجال فرنسا التي كانت تحتل بلاده، وترتكب الفظائع لمنع شعب الجزائر من تنفس هواء الحرية...". (بريون، 2010، صفحة 11) ويبدو أن سعد الله أراد أن يلفت الانتباه هنا إلى أنه لم يكن من تلاميذ ابن نبي المترددين على حلقاته، لكنه عندما يتحدث عنه لاحقا يقول إنه مصدره الأساسي الذي اعتمد عليه في دراسته لابن نبي هو معرفته الشخصية به، بالإضافة إلى مؤلفاته ولاسيما مذكراته التي قال عنها سعد الله

"إن فيها كشفًا لما تخفيه المؤلفات أو ترمز إليه رمزا، وأن ما على المحللين سوى الربط بين ما جاء في المذكرات وما ورد في الكتب، وتحليل ذلك على ضوء الوقائع والمعطيات والغوص في فكر ابن نبي خلف السطور والرموز". (بريون، 2010، صفحة 13) فسعد الله هنا ينبّه إلى نقطة مهمة جدا، قلما يركز عليها الدارسون لفكر مالك بن نبي، وهي محاولة فهم الرجل وتفسير أفكاره عن طريق الربط بين كتبه ومذكراته، ولعله ليس من قبيل المصادفة أن يفرد سعد الله مقالا في أحد مؤلفاته لهذه المذكرات كما تم تناوله سابقا.

وقول سعد الله بأهمية مذكرات ابن نبي في فهم وتحليل مؤلفاته الأخرى، ينبهنا إلى نقطة حيوية تتعلق بمنهجية التعامل مع أفكار ابن نبي التي يرى سعد الله أنها لا يجب أن تكتفي بالنقل والسرد، بل إنها تقتضي البحث والمساءلة واتباع منهج التفكير النقدي الذي استخدمه ابن نبي نفسه في مراجعاته لمشكلات عصره. كما لا يكفي -في نظر سعد الله- الاعتماد على إنتاج ابن نبي وحده أو رصد أفكاره ومساهمته هو فحسب، بل من الضروري الاتكاء على "محاسبة فكرية في ضوء النظريات الاجتماعية الأخرى سواء التي عاصر أصحابها أو المتقدمين عليه". (بريون، 2010، صفحة 14)

هذا الكلام نفسه يقودنا إلى نقد كيفية تعامل مريدي ابن نبي مع أفكاره وفلسفته عندما حصروا فكرة النهضة في نظرياته وآرائه فحسب، اعتقادا منهم أن أفكاره هي سقف ما أنتج عربيا وإسلاميا لحل مشكلة التخلف وتحقيق النهضة وإعادة بناء حضارة مشرقة. لكن عندما نقرأ لسعد الله بعض التعليقات حول ابن نبي ونشاطه الفكري، تستوقفنا إشارات تلفت الانتباه -على قلتها- لضرورة قراءة الفيلسوف قراءة متوازنة تتعامل مع الفكرة وصاحب الفكرة بمنطق نقدي موضوعي، بعيدا عن محاولات خصومه لطمس أفكاره ووأد جهوده، أو محاولا تمريديه اختزال فكرة النهضة في فكره فقط، رغم ما يكتنف الفكرة من زخم وتعقيدات وأبعاد متشعبة.

حقا إن سعد الله عندما حدد موقع ابن نبي بين مثقفي عصره، قال عنه إنه يمثل مدرسة فكرية مستقلة بين المدارس الفكرية التي عرفتها الجزائر منذ الحرب العالمية الأولى، وأنه كان ذكيا ناقدا، وكان عميق النظر، واسع التجربة والثقافة، بل يصفه بأنه "كان دولة وحده" لأنه كان مستقلا عن كل التيارات والتنظيمات المعاصرة. وعندما تطرق سعد الله لتنويه معاصري ابن نبي بأحد كتبه، أكد على وصفه بالفيلسوف والعالم والمؤرخ الدقيق للحضارة والمنظر الواعي لمسيرة الإسلام، وتأسف جدا لأن رجال الثورة همّشوا آراءه وأفكاره ولم يتكثروا على نظرياته لجعلها منطلقا فكريا وإيديولوجيا لصياغة قوانين الثورة وتسيير شؤونها. لكنه عندما تناول هذه الشخصية تعرّض لها في إطار بيئتها وثقافتها وفي حدود وعيها المعرفي، فحاول إبراز حقيقة الجهد الذي أداه ابن نبي في خدمة الثقافة الجزائرية ضمن إطارها

العربي الإسلامي. وأنصف الرجل بتقديمه كظاهرة بارزة في خريطة الفكر العربي الإسلامي، لكنه لم يتحدث عنه انطلاقاً من الإعجاب به أو تقديسه لأفكاره، بل انطلاقاً من حيث هو ناقد للتراث وباحث عن الحقيقة.

وهناك مواقف لابن نبي انتقدها سعد الله ولو بشكل عابر، مثل إشارات باستقلال ابن نبي الفكري وحرية في النقد، وهو الخط الذي انتهجه سعد الله في حياته سواء في تعامله مع السلطة أو في تعامله مع الطبقة المثقفة، لكن عندما تحدث سعد الله عن ابن نبي في القاهرة أشار إلى "استقلالته حتى في الوقت الذي اندمج كلّ الجزائريين الوطنيين في بوتقة واحدة وهي (جبهة التحرير الوطني) لمواجهة الخطر الذي يهدد وجود بلادهم". (تاريخ الجزائر الثقافي ج.7، صفحة 218) وكان المؤرخ هنا يوجه للفيلسوف لوما رقيقاً على بقائه خارج السرب، وكان الاستقلالية التي مدحها سعد الله في الموقف السابق لا يراها جديرة بالمدح في هذا الموقف!

ونلمس نفس الرأي عندما تحدث سعد الله عن نقد مالك بن نبي لرمضان عبان حين اعتبره الأول "رجلاً متواطئاً"، فأبدى سعد الله استغرابه من "حكم مفكر في مقام مالك بن نبي على سياسي ديناميكي في حجم رمضان عبان"، مبدياً علامات الاستفهام التي تقف وراء هذا الموقف، مستبعداً اتصال السبب بوجود أي أفكار مشتركة أو أي تنافس على الزعامة بين الرجلين! (تاريخ الجزائر الثقافي ج.9، صفحة 132) وكان سعد الله بهذا الاستفهام الذي بقي دون جواب، يستنكر على الفيلسوف الخوض في هكذا تناز، في وقت كانت الثورة بحاجة لكل أبنائها، مثقفين وسياسيين.

ومهما يكن من أمر، فإنّ انتقاد سعد الله لابن نبي كان عارضاً للفت الانتباه إلى مواقف وآراء جديرة بالبحث والدراسة، وهو ما يمكن اعتباره رسالة للباحثين في كيفية التعامل مع تراثنا حتى نستفيد من السلبيات والمساوي، بقدر ما نستفيد من الإيجابيات والمحاسن.

خاتمة

الملاحظ أن سعد الله حين تطرق للثقافة الجزائرية في مَعلمته "تاريخ الجزائر الثقافي" خلال الفترة الاستعمارية لم يركز على تراجم الأشخاص بالمعنى التقليدي، بل ركز على "الأفكار والتيارات وتصنيف المواد العلمية"، فهو عندما يترجم لأحدهم يترجم له داخل التصنيف الذي يعالجه فحسب. (تاريخ الجزائر الثقافي ج.3، صفحة 7) وعليه حين تحدث عن ابن نبي لم يناقش نظرياته، ولم يحلل أفكاره، ولم يحاول أن يقيّم فلسفة ابن نبي في نهضة الجزائر والإسلام، بل ركّز فقط على التأريخ لهذه الشخصية داخل الأحداث والظروف المحيطة بالزمن الذي عاشت فيه.

والشيء اللافت في دراسة سعد الله لشخصية ابن نبي أنه تتبع مسار حياته ثم تطوّر أفكاره ونظرياته وعلاقاته بمن حوله في إطار ظروف اجتماعية ونفسية وسياسية خاصة، مما قد يساعد الباحثين في تحديد الخلفية التاريخية والظروف المتشابكة التي أنتج فيها ابن نبي أفكاره. ناهيك عن تتبع مسار تطور تلك الأفكار وتغيرها حسب الظروف المشار إليها، ولعل هذا مما قد يساهم في استيعاب أفكار الرجل بعيدا عن الانبهار بالمعيتة وذيوع صيته في الشرق والغرب .

وعندما تحدث سعد الله عن البيئة التي نشأ فيها ابن نبي، أو ما إلى أنها كانت بيئة مزدوجة تجاوزت فيها الثقافة العربية وقيم البداوة الأصيلة مع الثقافة الأوروبية الوافدة. وقال عن تعليم ابن نبي إنه كان مزدوجا، لكنه نبغ وبرع أكثر في التعليم الفرنسي، وأكثر من مدح معلميه الفرنسيين الذين تأثر بهم وكانت لهم بصمة دائمة على تفكيره وثقافته فيما بعد. ثم إنّه درس في فرنسا، واختلط بالمجتمع الفرنسي، وتزوَّج من امرأة فرنسية، وتشبّع أكثر بالثقافة الفرنسية، وألّف كتبه باللغة الفرنسية، وكان يتقن الفرنسية أحسن من أهلها وأكثر مما أتقن اللغة العربية، وصنّفه سعد الله ضمن الكتّاب الجزائريين المثقفين باللغة الفرنسية.

وفي النهاية خلص سعد الله إلى أن كلّ ما ذُكر يدفع دارسي ابن نبي للتوقف والتساؤل قبل إصدار أحكامهم. ولا ريب أن عبارة "التوقف والتساؤل" هنا فيها إشارة لطيفة للبحث والتقصي في الخلفيات الثقافية والفكرية للرجل قبل الحكم عليه سلبا أو إيجابا، وهي -فيما يبدو- رسالة موجهة لمخالفيه ولمريديه على حدّ السواء.

بقي القول إن البحث كان يطمح للتوغل في حدود تأثر المؤرخ بالفيلسوف، ومدى تقمص مواقفه أو تأثره بأفكاره، والدعوة إليها أو انتقادها أو توضيحها أو تفكيكها أو البناء عليها لإنتاج أفكار ومواقف جديدة. وأيضا مدى تمثل المؤرخ بهذه الأفكار والنظريات في كتاباته ومواقفه في الحياة مما قد يفيدنا في استلهاهم منهج علمي إيجابي وصالح لعصرنا نستمر على خطاه في قراءة وفهم مفكرينا، ولم لا تحويل كلماتهم وأفكارهم إلى أفعال ومنهج حياة. لكن بعد البحث والقراءة لوحظ أن الموضوع شاسع ويحتاج لبحث مستقل من أجل الإحاطة به، ولعلّ باحثين آخرين يأتون مستقبلا يكشفون النقاب عن هذه الأفكار خدمة للعلم وتثمينا لجهود علمائنا ومفكرينا.

قائمة المراجع

- أبو القاسم سعد الله. (2009). تاريخ الجزائر الثقافي ج.1. الجزائر: دار البصائر.
- أبو القاسم سعد الله. (2009). تاريخ الجزائر الثقافي ج.3. الجزائر: دار البصائر.
- أبو القاسم سعد الله. (2009). تاريخ الجزائر الثقافي ج.7. الجزائر: دار البصائر.
- أبو القاسم سعد الله. (2009). تاريخ الجزائر الثقافي ج.9. الجزائر: دار البصائر.
- أبو القاسم سعد الله. (2009). على خطى المسلمين - حراك في تناقض - . الجزائر: عالم المعرفة.
- فوزية بربون. (2010). مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة. دمشق: دار الفكر.
- مالك بن نبي. (1984). مذكرات شاهد للقرن (الإصدار 2). دمشق: دار الفكر.
- مالك بن نبي. (1986). شروط النهضة. (عمر كامل مسقاوي، و عبد الصبور شاهين، المترجمون) دمشق: دار الفكر.
- مالك بن نبي. (2005). مجالس دمشق. دمشق: دار الفكر.